

شعراؤنا المؤرخون

كيف ترتب روادهم وقروها

للاستاذ محمود عزت عرفة



قد يستسيغ قارىء الأدب منا أن يطالع شعر ابن أبي ربيعة مثلاً في غير ما ترتب ولا تبويب — كما هو الشأن في ديوانه المطبوع — فلا يفرق بين أوائل شعره وأواخره ؛ ولا يتدرج في المطالعة من شعر صباه وشبابه ، إلى شعر رجولته واكماله ، ثم إلى شعره وهو يدب هوناً إلى الثمانين ...

قد نستسيغ ذلك لأن ابن أبي ربيعة وأمثاله من الشعراء الماطفين لا يصدرون في أقوالهم إلا عن بواعث نفسية وموحيات خاصة ، لا ترتبط عند القارىء ، ولا عند الشاعر في أكثر الأحيان ، بزمان محدد أو مكان معلوم .

من أساسه ونجته من جذوره ، فتوحد بين سبيل التعليم العام أولاً ، فلا تكون هناك مدارس أولية وأخرى ابتدائية تؤدي هذه وتلك إلى غيرها بنظام الحلقات المتداخلة في التعليم الذي يدرج عليه نظامنا الواهن السقيم ، وأن تتوحد فرصة هذا التعليم العام المشترك لجميع المصريين ، فلا يستطيعه الواجدون دون الفاقدين ، لا أبناء الحضرة دون أبناء الريف ، ولا المسلمون دون النصارى — كما هو الشأن في بعض معاهدنا النسمة بسمة القرون الوسطى إلى اليوم

أما التعليم العالي وما فيه من تخصص واستعداد مهني فيجب أن يكون في كليات جامعة واحدة ، لا في معاهد مستقلة برأسها ، والمتخرجون في هذه الكليات يجب أن يكونوا في نظر الدولة سواء ، فلا ينظر رجال البوليس في شيء من الحسد إلى رجال الجيش ، ولا يطلب المهندسون المساواة بالقضاة ، والدرسون المساواة بأولئك وهؤلاء ، وتحتفي هذه الشكايات التي تملأ أعمدة الصحف ، وتبرا النفوس من الحقد والجشع ، ولا نسمع أن طبيباً أهان وكيل نيابة ، أو أن طلبة الأزهر تماسكوا مع طلبة دارالعلوم

عبد الحميد بنرس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ولكن الشأن يختلف في ذلك كثيراً مع شعرائنا الاجتماعيين من أمثال المتنبي والنواصي والبحتري وأبي تمام والشريف ومهيار والسري ومردد ؛ أولئك الذين سجلوا في شعرهم صوفاً كاملة من أحداث عصورهم ، وجروا في حلبة التاريخ أشواطاً تختلف طولاً وقصراً باختلاف سنى أعمارهم . فارتبط شعرهم بحوادث تاريخية مشهورة ، محدود زمانها ومكانها ؛ ونجست من أجل ذلك أهمية الترتيب والتبويب في مطالعة إنتاجهم ، ترتيباً وتبويباً ليس منهما في شيء . مراعاة أيجدية القوافي ، ولا الاكتفاء بملاحظة أغراض الشعر المختلفة ، كما هو الشأن في معظم الدواوين المطبوعة اليوم ، وفي أصولها المخطوطة من قديم .

ولنضرب هنا المثل بشاعر كالبحترى ؛ فهو قد ولد في أوائل عهد المأمون ، وتوفى — عام ٢٨٤ هـ — في خلافة المتضدد . وبذا يكون قد عاصر عشرة من خلفاء بني العباس اتصل بستة منهم اتصالاً وثيقاً ، هم على ترتيب عهودهم : التوكل والمتنصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ؛ وله في كل منهم مدائح أو أهاج^(١) تكشف عن مدى اتصاله بالحياة السياسية على عهده وانتمائه في تيار الحوادث الجارف خلال هذه الحقبة الطويلة الهامة من حكم العباسيين . وإذا نحن نظرنا إلى هؤلاء الأعلام الستة كنجوم لوامع نيرات في أفق ديوانه نجد لنا أهم اتجاهاته ، كان لنا أن نتخذ من مسار الأعلام المنبثة فيه نجوماً أو كواكب أقل التماعاً تملأ بها الفجوات الفسيحة فيما بين ذلك ؛ فنخرج من شعر البحتري بصورة تاريخية مشرقة المعالم واضحة التمايز ، لحقتها حقائق التاريخ وسداها الفن الرفيع والأدب المعجب ... ذلك أننا نجد إلى جانب ما قاله في أولئك الخلفاء قصائد ومقطعات أخرى تبلغ المئات عدداً من مدائح وأهاج ومعاتبات ومراث ومداعبات ، ومن سائر ما يدور بين المتعاصرين — كلها تتعلق بشخصيات تاريخية هامة من الوزراء والقواد والولاة والسراة والأدباء والأعيان وغيرهم ؛ وأكثرها يسجل معالم واضحة دقيقة لأسر خطيرة الذكر على هذا العهد من أمثال آل طاهر وآل

(١) راجع مقالينا : « شاعر ومنجم » وه. النابون في أوائلهم —

حدثت عن البحتري ، في السددين ٥٤٥ و ٦١٠ من مجلة الرسالة ،

بتاريخي ١٣-١٢-١٩١٣ و ١٢-٣-١٩١٥ م

الدبر وآل حميد ، وآل مخلد وسهل ووهب وخاقان ونيبخت وبسطام ... وغير هؤلاء

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن أبي تمام الذي مدح المأمون والمتصم والوائق من الخلفاء - وتوفي قبل الأخير بعامين - ثم التمت في ثنايا ديوانه الحافل بالأعلام ، أسماء آل دواد ووهب وسهل ورجاء وحيمد ومزيد الشيباني وطوق التغلبي وبوسف الطائي ... الخ بل يمكن أن نقول ذلك عن كل شاعر اجتماعي من أمثال من أشرنا إليهم ، فترتيب شمر هؤلاء وفق أبجدية القوافي أو أغراض الشعر كما هو متبع إلى اليوم ، تشويه لمرض إنتاجهم ليس بمدته تشويه ، وإعراض عن ناحية هامة كان ينبغي أن تتجه إليها العناية منذ بعيد ، تلك هي الناحية الاجتماعية التاريخية من هذه النقائس الخالصة .

وإن عذر القدماء لوضوح في لزوم هذه الطريقة الفجة في جمع الدواوين ، إذ كان الأمر في ذلك موكولا إلى جماعة الرواة منهم والحفاظين ، والناية منه حفظ هذه الكنوز من الضياع ، ثم مساعدة التآدين والأدباء على اقتناء مجموعات شعرية وافية تسهل مزاجتها واستخراج البيت منها أو الأبيات بأيسر المجهود ، لتذوق ما فيها من شاعرية ، أو لدراستها دراسة لغوية لا تخرج عن دائرة النحو والبلاغة والمروض وما إليها . أما هذه الناحية التاريخية التي نشير إليها فلم تكن مما يخطر للقوم على بال ؛ وإنما هي عرض يتجدد ويزداد شعورنا بالحاجة إليه كلما تطاول الزمن على هذه القصائد فأكتسبت صفة السجلات التاريخية الوثيقة .

وإن تحقيق هذا الغرض ليقضي أن ترتب كل ديوان ترتيباً تاريخياً تراعى فيه تسلسل الحوادث المختلفة التي يسجلها الشاعر ، وتاريخ حياة كل من الأشخاص الذين يتحدث عنهم^(١) . وليس بظن في صدق هذا التاريخ الأدبي أو ينتقص من قدره ما قد يتجه إلى الشعراء عامة من الريبة في صحة أحكامهم لأنهم كؤرخين معاصرين للحوادث التي يوردونها ، يمتازون من الخبرة وسعة

(١) قليل جداً من دواوين الشعر العربي ما رتب على هذا الوضع ، ولعل ديوان النني يعد سورة مبسقة من ذلك وفي كنياب ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام أن النني « رتب ديوانه بنفسه وقرأه الناس عليه ، وأمل شرحاً لبعض أبياته ، وناقشه فيه من أخذوا عنه » انظر ص ١٧ من ذكرى أبي الطيب .

الاطلاع بما لا يتأتى لنيرهم ممن سجلوا هذه الحوادث بعد انطواء أزمانها . وأي وصف لحياة الأقبين للمتصم أصدق عبارة مما سجله أبو تمام في قصيدته : الحق أبلج والسيوف عوار ؟ .. بل أي تسجيل لحوادث فتح عمورية أبلغ أثراً في النفس مما نقرأه في بائته : السيف أصدق أنباء من الكتب ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة نوى إلى بعضها فيما يلي :

- ١ - رحلت عن الربيع المحيل فمودى : لأبي الغاهية في عقد الرشيد المهد لأبنائه الثلاثة في ذي الحجة عام ١٨٦ هـ
- ٢ - شغلان من عدل ومن تغني : للبحراني في عقد التوكل البيعة لأبنائه المنتصر والمتر والمؤيد في ذي الحجة عام ٢٣٥ هـ
- ٣ - قل للسحاب إذا حدث السبال : للبحراني في وفود الروم على التوكل ، ومقاداة الأسرى (في شوال عام ٢٤١ هـ)
- ٤ - زاد عن مقلتي لذيق النمام : لابن الرومي في إيقاع صاحب الزنج بأهل البصرة أيام المتمد (شوال ٢٥٧ هـ)
- ٥ - عواذل ذات الخال في حواصد : للمنتبي في حروب خرشنة على عهد سيف الدولة عام ٣٤٠ هـ .
- ٦ - فتوحك ردت بهجة الملك سمردا : للسري الرفاء في الغرض السابق .
- ٧ - فتح أعز به الإسلام صاحبه : للسري الرفاء في هزيمة الدمشق وبناء قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ .
- ٨ - على قدر أهل العزم تأتي العزائم : للمنتبي في الغرض السابق

وينبغي بعد ألا يفوتنا النص على أن هؤلاء الشعراء كانوا من حزب الخلافة في أكثر أمرهم ، فلهجتهم هي الرسمية ، ووجهة نظرم هي الوجهة العامة الغالبة . وكتب التاريخ التي ننحني أمام صدقها لا ننظر أكثرها إلى الحوادث السائرة إلا من هذه الزاوية . فهؤلاء الشعراء في تسجيلهم لحوادث التاريخ العامة لم يكونوا إلا لساناً ينطق برأى الهيئة الحاكمة ، ولا يخالف كثيراً - إن لم يمثل تماماً - رأى الهيئة المحكومة من عامة الشعوب الإسلامية . هذا ، ولم تكن الأطلع التي تمتلج في نفوسهم ، والتي يحتمل معها الشك في صدق أحكامهم ، بالأطالع الجريئة بميدة النور التي قد تشوه بها الحقائق ويختل معها ميزان الأحكام . فهم مع

المؤرخون بسردها ، ثم هم يتخبطون في عجافل النيب إن تناولوا إلى ما فوق ذلك بتعليل بواعثها .

ولتحديد موقف الشعراء من المؤرخين ، وبيان مدى الاعتماد على الشعر كمصدر من مصادر التاريخ نورد ما ذكره الدكتور طه حسين بك في كتابه « مع المتنبي » ، وهو يتحدث عن وصف الشاعر لحروب سيف الدولة ، قال ^(١) : « قد يقال إن المتنبي أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغي ، وأضاف إليها من الخطأ أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يمن إلا بتصوير الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ، فلم يكن المتنبي مؤرخاً ولا محققاً ، وإنما كان شاعراً ، وشاعراً ليس غير . استغفر الله ، بل كان شاعراً يشترك في الجهاد ، يذوق لذته ويشقى بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون على الشعر نفسه . وأين كانت تقع حرب طروادة التي وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التي شهدتها المتنبي ووصفها تسعة أعوام كاملة . أقيماب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمده من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التي اشتركت في هذه الحرب أبدع تصوير وأروع ؟ » . ثم يعتذر صاحب كتاب مع المتنبي عن تهويل الشاعر في وصف وقائع سيف الدولة فيقول : « كلا إنه لا يتجاوز الحق ، ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين » .

وإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الناحية التاريخية من الشعر ، فحسبنا أن نجتزئ ، بالإشارة العابرة إلى ناحية أخرى تتعلق بعلم الجغرافيا . وخير من الإطناب في هذا المقام أن ننقل للقارئ فقرة موجزة من كتاب « امرئ القيس » للدكتور محمد صبرى حيث يقول ^(٢) : « قد جرى امرؤ القيس في معظم قصائده ، وتبعه في ذلك جميع شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين ، على سنة تحديد الأماكن وذكرها ، ولا نبألغ إذا قلنا إنه لولا هذه السنة

انجذابهم في تيسار السياسة لم يكونوا من رجالها بالمعنى الفهوم ، وإنما هم أهل فن وأدب : مطلبهم الميث الرغيد وأمنيتهم الحياة السهلة الوادعة ؛ يفتنهم جمال الحق ، ويمجبههم الانضواء تحت لوائه والقيام بنصرته . وإنهم لأقل الناس انحرافاً ، وأقلهم تبهماً لذلك تشوبها للحقائق زيادة فيها أو نقصان .

وكبار المؤرخين أنفسهم بتجه إليهم من النقد شيء كثير ، ويؤخذ عليهم من المآخذ ما يكفي أقله لأن يودى بقدر مؤلفاتهم التي نمتد عليها الاعتماد كله ، ونستنبط منها حقائق التاريخ - فيما نزع - جليلة ناصعة .

جاء في « نخب الإسلام » عند الحديث عن مؤرخي العصر العباسي الأول ^(١) :

« قد يكون في عمل هؤلاء المؤرخين بعض مآخذ كتلون التاريخ ببعض المقائد أحياناً ، وكبتائهم التاريخ حول الخلفاء لا حول الشعوب ، وإهمالهم كثيراً من وصف النواحي الاجتماعية وغلبة النزعة الدينية فيما يعرضون له من أحداث ، وضمف النقد وإيجازه وسذاجته ... الخ » .

ونقول إنه لن يكون نصيب الشعراء من أمثال هذه المآخذ أكثر من نصيب المؤرخين ، مع ما ينبغي الاعتراف به دائماً من وفرة حظ الأولين من الصراحة وصدق التعبير ، وقلة تعلق أكثرهم بالماديات تعلقاً يدفعهم إلى اعتساف سبيل التحيز أو التحيف .

على أنه ينبغي لنا أن ندرك الفرق بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين ؛ فلا نجثم الشعراء طريقاً غير طريقهم ... وإنهم لأصحاب الإغراق والإسراف والبياننة والتهويل ... تلك الهالات الموثقة التي ترين جبين الشعر ، والتي لا يصعب على المتفرس أن يتعرف إلى وجه الحقيقة من ورائها . ثم هم بعد ذلك يتفردون بالإبداع في تصوير نفوس الأفراد والجماعات والتعمق في تحليل الشخصيات التاريخية التي يعاصرونها إلى الحد الذي لا يتأتى لكثير من المؤرخين . ورب أبيات قصيرة يصف بها الشاعر حالة من حالات خليفة أو أمير في مجلس سمر أو ساحة قنس أو محفل مناظرة أو مقام مشاورة - تكشف لنا من خلجات هذه النفسية التاريخية ونوازعها ما يملل الكثير من الأحداث الهامة التي يكتبون

(١) مع المتنبي - ٢٢٣ .

(٢) الشوامخ : امرؤ القيس صفحة ٣٧ .

(١) نخب الإسلام للإستاذ أحمد بك أمين ج ٢ - ٢٠٩ .